الدراسة البيانية للقرآن الكريم عند فاضل صالح السامرائي.

سمات ومرتكزات.

د.اليزيد بلعمش

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية

ملخص:

يهدف هذا المقالُ إلى بيان السِّمَات والمرتكزات التي قامتْ عليها الدِّراسة البيانيَّة عند فَاضِلِ صالحٍ السَّامرائيِ، بالتَّركيز على بيان المصادرِ التي اعتمد عليها في دراسته، والضَوَابِطِ التي تقيَّد بها، الأدواتِ الإجرائيَّةِ التي اتَّبعها. وقد تُوُصِّل من ذلك إلى تسجيلِ جملة من هذه السِّمات التي تُثْبِتُ فعلا أنَّ دراسةَ فاضلٍ قد كان لها من الإحكام المنهجي ما يؤهلها لأن تكونَ أنموذجاً يُحتذى به في الدِّراسات اللُّغويَّة القرآنيَّة.

Abstract:

The purpose of This article is to represent the signs and the pivots which the graphic study of FADEL Salah assamirai stand on it، to focus on the confiscations which he reposed on it in his study، the crubs he restricted with، the procedural apparatus which he follow. it reached to register a whole of signs which prove quietly that the study of FADEL was tidy closely، which qualify it to be a formula to follow up in the qu'ranic linguistic studies.

مقدمة:

تنوعت مواضيع القرآن الكريم، وتبعا لها تنوعت اهتمامات الباحثين والدارسين له، فهو كتاب تربية وتعليم لمن كان قصدُه تصفية سلوكات الناس وتدريبهم على حُسن الخلق، وهو كتاب حقٍّ وعلمٍ لمن أراد تنمية معارفه ومعلوماته،

وهو كتاب هداية وإرشاد ودلالة لمن اختلطت عليه الطرق والمسالك واشتبهت عليه الأفكار والتوجهات، وهو كتاب فقه ومعاملات لمن رام تعلُّم الحلال والحرام.

والقرآن مع هذا كله كتاب لغةٍ وبيانٍ، أعجز أمَّة عرفت بهما، وبرعت فيهما، حتىٰ إنه مِنْ غَلَبَةِ هذا الجانب علىٰ الأذهان، وتعلقه القلوب به، صار إذا أطلق الإعجاز انصرف مباشرة إليه دون غيره من الجوانب السابقة رغم دخولها فيه، ولهذا نجد أنَّ الالتفاتَ إلىٰ لغة القرآن وبيانِه، والعنايةَ بهما كانت من أول لحظة نَزَلَ فيها، ولازال هذا الالتفاتُ ينمو، وتلك العنايةُ تكبر، حتىٰ صار من العسير علىٰ الفرد أن يحصي المؤلفات التي كتبت في بيان الجوانب اللغوية والبيانية للقرآن الكريم، ففي كلِّ عصر وفي كلِّ مصر نجد كثيرا من المهتمين، علىٰ اختلاف بينهم في درجات العناية والتَّناول.

أما من الناحية التاريخية فبدأت هذه الدراسات البيانية للقرآن من عهد النبوة والخلافة الراشدة علىٰ شكل إشارات وومضات لأنَّ العهد لم يكن بحاجة إلىٰ مثل هذه الأمور، ثم بدأت الخطوات الكتابية فيها مع أبي عبيدة معمر بن المثنىٰ(208هـ)، وبلغت مرحلة متقدمة مع الزمخشري(538هـ) في تفسيره الكشاف، لتتراجع قليلا بعده، ثم عادت في العصر الحديث مع محمد عبده(1323هـ/ 1905م) وتلاميذِه، كما لمعت أسماء أخرىٰ قدَّمت جهودا معتبرة من مثل: محمد عبد الله دراز (1377هـ/ 1958م)، أمين الخولي(1385هـ/ 1966م)، عبد الخالق عُضيمة (1404هـ/ 1984م)...وغيرهم[1].

[1] للتوسع والاستزادة ينظر: محمد رجب البيومي، خطوات التفسير البياني، طبع مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر-القاهرة، ط:1971. وكذا بحث: محي الدين بلتاجي، الاتجاهات اللغوية

في هذا العصر الذي ازدادت فيه غربة اللغة، وبَعُد فيه الفهم عن السيلقة الأولى، برز أحد الدارسين الذين أثروا المكتبة القرآنية والبيانية بمؤلفات متعددة، لقِيَت قبولا واسعا في السَّاحة الدراسيَّة القرآنيَّة والبلاغيَّة؛ إنَّه فَاضِلُ صَالِحٍ السَّامرائيُّ[1]، فقد امتازت كتابتُه بسمات جعلتها قِبلَةَ الدَّراسين، ونحاول هنا أن نشير

والبلاغية في التفسير، من: ص77 إلى ص: 128)، وكذا: محمد رفعت أحمد زنجير، مباحث في البلاغة وإعجاز القرآن، طبع جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم، ط1، 2008. ولعل أبرزها وأشملها للموضوع: ما كتبه نعيم = =الحمصي، فكرة إعجاز القرآن الكريم من البعثة النبوية إلى العصر الحاضر، مؤسسة الرسالة-بيروت، ط2، 1980. .

[1] وهو: الأستاذ الدكتور فاضلُ بنُ صالحِ بنِ مهدي بن خليل البدري من عشيرة "البدري" إحدى عشائر سامراء، ولد بها عام 1933م في عائلة متوسطة الحالة الاقتصادية، حفظ القرآن الكريم في سن مبكرة ومدة وجيزة، فكشف ذلك عن حدَّة ذكاءه، أكمل الدراسة الابتدائية والمتوسطة والثانوية في سامراء، ثم بدأت رحلته العلمية امتازت بالثراء العلمي دراسة وتدريسا وكتابة وتأليفا، إلى أن صار خبيرا في لجنة الأصول في المجمع العلمي العراقي، ثم عضوا عاملا فيه. فالرجل أستاذ ونحوي خبير، ودارس قرآني مميز، وشاعر ينظم الشعر من سن مبكرة. وقد اجتمع عنده القرآنُ واللغةُ والفهمُ والشعرُ، ولهذا كان له إنتاجٌ علميٌ نفيس، فقد كتب -إلى حَدِّ الآن- سبعةَ عشرَ 17) كتابًا، معظمها من جزئين، وبعضها أكثر، ومعظم هذه الكتب كانت دراسة لبيان القرآن الكريم. أو تأصيلا وتمهيدا لهذه لدراسة.

وهنا ينبغي أن نشير إلى ندرة المراجع التي ترجمت للدكتور فاضل صالح السامرائي كونه من المعاصرين، فلم أجد له من الترجمات إلا ما كتب عنه بهجت عبد الغفور الحديثي في كتاب عنوانه: القصيدة الإسلامية وشعراؤها المعاصرون في العراق، ولم أتمكن من الحصول عليه. وما سأشير إليه هنا من لمحة عن حياته وسيرته العلمية أخذته من بعض المواقع على الأنترنت، وهي:

- موقع إسلاميات: http://islamiyyat.com وقد صرح صاحبه بأنه نقله من الكتاب السابق الذكر: القصيدة الإسلامية وشعراؤها.

إلى بعض تلك السمات بعد التعريف بالإنتاج العلمي له وما احتواه من الدراسة البيانية.

1- التعريف بالدراسة البيانية لفاضل صالح السامرائي: كان فاضل صالح السامرائي أوفر حظا من غيره في التَّأليف في الدراسات البيانية للقرآن الكريم، سواء من جهة ما توفر لديه من مصادر حول الموضوع، أو جهة الكتابة في الموضوع.

1/ فمن جهة ما توفر لديه، فقد تقدمت الدراسة البيانية تقدما ملحوظا، وتَبَلْوَرت أفكارها، حتى غدت فرعا من فروع الدراسات اللغوية والأدبية والبيانية، وأُنجز فيها عدد كبير من الرسائل الجامعية، وأمام هذا فإنَّ أيَّ باحث سيستفيد من الجهود السابقة عليه.

بالإضافة إلى هذا، فإن فاضل صالح السامرائي قد اهتم بالعلم الذي هو القاعدة الدراسة البيانية، ألا وهي العلوم العربية، فاهتم بها اهتماما تأصيليا يسير به نحو الدراسة البيانية، فقد ألف كتاب "معاني النحو" في أربع مجلدات (طبع عدة طبعات منها: دار الفكر بعمان سنة 2000)، تناول فيها النحو تناول بلاغيا، مبينا المعاني التي تدل عليها الأبواب النحوية بصورها متعددة، مستشهدا على ذلك بآي

- موقع الموسوعة التاريخية الرسمية لجماعة الإخوان المسلمين:

. http://www.ikhwanwiki.com/index.php?title

-موقع مؤسسة النور للثقافة والإعلام حوار أجراه معه: علي مولود طالبي):

http://www.alnoor.se/article.asp?id=88195

وهناك أيضا: **حصة فيديو مسجلة** بتاريخ: 16-05-2002، بعنوان: **حديث الذكريات مع علماء مبدعون**، قام بإعدادها: جاسم مطوع، استضاف فيها الدكتور فاضل وعرّف بطرف من سيرته وإنتاجه.

الكتاب العزيز، فكان في حد ذاته دراسة بيانية، كما اهتم بالصيغ ودلالاتها في العربية فألَّف في ذلك "معاني الأبنية في العربية". ثم شَفَعَ هذا بكتابين آخرين، تناول في أحدهما:"الجملة العربية أقسامها وتأليفها" وشيئا من دلالاتها المختلفة، والآخر عنونه بـ"الجملة والمعنى" وظاهر من عنوانه محتواه. فتكونت له من هذا قاعدة من علوم اللغة قوية ومتينة للدراسة البيانية، لعلها السرُّ الحقيقي في تمكنه من هذا الباب من الدراسة القرآنية.

2/ أما من جهة الكتابة في هذا الموضوع، فتنوعت مؤلفاته في ذلك تنوعا يدل على مُكْنَةِ الرَّجل وقوته في فهم آي القرآن الكريم واستخراج الوجوه البيانية والبلاغية منها:

- أَلَّف في الكلمة القرآنية:"بلاغة الكلمة في التعبير القرآني" بيَّن أنه جمع فيه بعض المباحث عن المفردة القرآنية؛ بعضها لم يطلع عليه في المراجع السابقة عليه، وبعضها متفرق في المطولات يحتاج إلى تنضيد.

- وألَّف في التَّعبير القرآني:"التَّعبير القرآني"، و"من أسرار البيان القرآني" تناول فيهما جملة من الجوانب البيانية لتراكيب القرآن الكريم، وختم الأول منهما بتفسير بياني لسورة "التين". والثاني بتفسير آيات مختارة متشابهة من سورتين مختلفتين، كما كتب في هذا السياق كتابا سماه: "قبسات من البيان القرآني"، كان بمثابة تفسير، لأنه تناول فيه آيات الصيام من البقرة، وأواخر آل عمران، والمجادلة والتغابن والقدر والعصر، وبعض الأسئلة البيانية.

- وألَّف في مسائل متنوعة متعلقة بما يدور في أذهان قرّاء القرآن الكريم عن المتشابه في عدة كتب: "أسئلة بيانية في القرآن الكريم"، و"لمسات بيانية في نصوص من

التنزيل"، وهذا الثاني تناول فيه عددا من سور القرآن تناولا بيانيا، منها: الفاتحة والقيامة والبلد.

- ثم تفرغ للتأليف في تفسير سور من القرآن تفسيرا بيانا: فكتب في ذلك ثلاثة أجزاء. عنونها بـ: "على طريق التفسير البياني"، لأنه - كما يقول- **"لم أشأ أن أسميه (التفسير البياني) لأنه في الحقيقة ليس تفسيرا بيانا للقرآن الكريم، وإنما هو قد يكون خطوة أو خطى على طريق التفسير البياني أو نقطة فيه قد تكون نافعة لمن يريد أن يسلك هذه السبيل"**[1]، وهذا من تواضعه.

هذا من حيث الوصف الشكلي لأهم الكتب التي كتبها، أما من حيث محتواها فإنه يعتبر هذا المؤلَّف وغيره من المؤلفات السابقة كلُّها محاولة لدراسة التعبير القرآني، فقد قال في بداية هذا التفسير: **"فهذا الكتاب في سلسلة كتب التَّعبير القرآني التي كتبتها آثرت أن أسميه: على طريق التفسير البياني"**[2]، فكتبه هذه كلها تُكمل بعضها بعض، وتسعى نحو هدف واحد؛ هو دراسة التعبير القرآني دراسة بيانية تكشف عن معانيه وأسراره ولطائفه وإعجازه.

2- سمات الدراسة البيانية عند فاضلِ صالحٍ السامرائيِّ:

رغم كثرة الكتب التي تناول فيها فاضل السامرائي كثيرا من البحوث البيانية في القرآن الكريم، إلا أنه لم يتحدث عن منهجه في الدراسة البيانية، اللَّهم إلا ما نجده من إشارات خاطفة ووجيزة جدا في بعض مقدمات كتبه، أو ما ذكره في مقدمة تفسيره البياني من أنّ على دارس القرآن الكريم أنْ يعتمد على مجموعة من المنطلقات

---

[1] على طريق التفسير البياني، جامعة الشارقة، ط2002م، ج1،ص5).

[2] المصدر نفسه ج1،ص5).

والمرتكزات، تجعله على الطريق الصحيح للتفسير البياني، عنونها بـــ: "ما يحتاج إليه المتصدي للتفسير البياني"، وقد ضمنها: خمسة عشر أمرا.

وقبل أن نذكر هذه المنطلقات والمفاتيح، ننبه إلى أنَّ عدم تحدث فاضل على عناصر منهجه تنظيرا، رغم تقيده بها، يَدُلُّك على أنَّ منهجه كان منهجا عمليا تطبيقيا بدرجة كبيرة جدا، لهذا نلحظ قِصَرَ المقدمات التي كان يقدم بها كتبه، وعدم وجود تمهيد للمباحث التي تناولها في كتبه، وهذا -بدوره- يكشف عن أمر جوهري دقيق جدا، قد يكون هو السبب في انصراف الدكتور عن الحديث عن سمات الدراسة البيانية عنده، ألا **وهو أنَّه كان مشدودا بقوة نحو الغرض المقصدي الذي كان يحرِّكه في دراسته وتفسيره**، فقد كان يسعى من دراسته هذه، وتحليله البياني إلى تعميق الصلة بالكتاب العزيز، وتقوية الإيمان بإعجازه بالدليل العلمي القاطع لا بالاعتقاد المجرد[1]. فقوة الشدِّ نحو هذا التحليل البياني المقصدي جعلته يُغفِل الحديث عمَّا يحول دون هذا المقصد المهم.

---

[1] ينظر على سبيل المثال: كتاب "التعبير القرآني" فقد أشار في مقدمته إلى أنه إنما أراد من هذه الدِّراسات أن يتملس صحة ما يقال عن إعجاز القرآن وعلو بلاغته وقدره، وقد وصل إلى هذا الهدف، ولهذا خلص إلى أن يقول: "وأنا لا أطلب من القارئ أن يسلم بهذه الحقيقة ... وإنما أطلبه أن يخلع عنه جلباب العصبية وينظر بروح علمية"[التعبير القرآني، دار عمار-عمان الأردن)، ط4، 2006، مقدمة الكتاب]، وينظر أيضا: "لمسات بيانية في نصوص من التنزيل" فقد قال: "وهذه جملة من نصوص التنزيل ... أبين طرفا مما فيها من أسرار تعبيرية ولمسات فنية لعل فيها نفعا لدارسي القرآن ولتكون خطوة أخرى ... في بيان شيء من أسرار هذا السفر العظيم"[لمسات بيانية من نصوص في التنزيل، دار عمار-عمان، ط3، 2003، من مقدمة الكتاب] ... وغير ذلك. .

لقد كان لهذا الأمر أثره في دراسة فاضل السامرائي، فقد كان همُّه الوحيد هو إثبات الوجه البياني والإعجازي، وتعظيم هذا الكتاب في النفوس، فلم يكن يسعى من وراء ذلك إلى أن يثبت قوة منهجه، وصحة أدواته، ولم يكن غرضه تعقب غيره أو تنقصهم بأنهم لم يلتفتوا إلى هذا الوجه، أو غاب عنهم الالتفات إلى ناحية معينة، كما قد يفعل غيره من الدارسين. لقد كان فاضلٌ -على اسمه- فاضلاً مقرا باحتمالية الخطأ والصواب فيما ذهب إليه، وهذا ما دفعه إلى مزيد من التحري والبحث، وكثرة التأمل والتدبر[1].

ونعود إلى الأمور التي قال عنها فاضل السامرائي: إن المتصدي للتفسير البياني يحتاجها، هي:

1- التبحر في علم اللغة.

2- " " " في علم التصريف.

3- " " " في علم النحو.

4- " " " في علم البلاغة. وقد جمع هذه الأربع في عبارة موجزة " التبحر في علوم اللغة العربية"

---

[1] وأقواله الدالة على هذا الأمر كثيرة متضافرة. قال في كتاب "أسئلة بيانية": "أرجو من القارئ أن يعذرني إذا كنت عنده غير مصيب، وألا يبخل عليَّ بدعوة ..." [ص6]، وجاء في التعبير القرآني قوله: "أنا لا أقول إني وضعت الكتاب بعيدا من العصبية والهوى وإن كان يخيل إلي أني فعلت ذاك، ولا أفترض أن القارئ سيسلم بكل ما يجده فيه ولا أطلب منه ذاك ..."[ص8]، وكذا جاء مثله في كتاب "بلاغة الكلمة في التعبير القرآني" حيث قال:" وأنا لا أزعم أني أتيت بأحسن مما ذكروه، وأن توجيهي أصوب مما ذهبوا إليه، ولكني أذكر ما وجدته في نفسي"[ص4]، وغيرها من المواضع من هذه الكتب وغيرها، كـ: "من أسرار البيان القرآني ص6)".

5- القراءات.

6- أسباب النزول.

7- النظر في السياق.

8- مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير الذي يراد تبيينه ليستخلص المعنى المقصود.

9- مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها.

10- أن يعلم أن هناك خصوصيات في الاستعمال القرآني.

11- أن ينظر في الوقف والابتداء وأثر ذلك في الدلالة.

12- أن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة والعبارة كالإبدال في المفردة والحذف والذكر وأي تغيير في الصيغة والإدغام ...الخ.

13-إدامة التأمل والتدبر.

14- أن يكون قد اطلع على جملة صالحة من التفاسير وكتب علوم القرآن وكتب المتشابه والتناسب وكتب أسرار التعبير القرآني...

15- أساس ذلك الموهبة[1].

وذهب بعضهم إلى أنه يمكن أن نقسم هذه المفاتيح إلى ثلاثة محاور وسبعة آداب، والمحاور هي:

1- علوم اللغة (اللغة والصرف والنحو والبلاغة).

[1] على طريق التفسير البياني، ج1،من: ص7... إلى: ص14)،

2- علوم القرآن (القراءات، أسباب النزول، والأشباه والنظائر، الوقف والابتداء، ...)

3- الذوق والموهبة.

وأما الآداب فما تبقى مما ذكره فاضل السامرائي[1].

وهذا التقسيم قد يوافق عليه من جهة أنه تفصيل وتفريع، وقد يخالف من ناحية أخرى، إذا أردنا الضبط أكثر وإدراج العناصر المتشابهة تحت الأصول التي يمكن أن تدخل تحتها. وهكذا إذا ما تأملنا ما ذكره فاضل السامرائي نجده ينقسم مع غيره من عناصر منهجه مما لم يشر إليه صراحة ثلاثة أقسام؛ هي: **مصادر وآليات (إجراءات) وضوابط**، وهذه بمجموعها تشكل سمات المنهج الذي اعتمده في طريقه نحو الدراسة البيانية بما فيها التفسير البياني.

إذا: فمنهج فاضل السامرائي يقوم على: ثلاثة أركان، هي: مصادر ترتكز عليها الدراسة، وضوابط تتقيد بها، وآليات وإجراءات تستخدم فيها، وتوضيح ذلك في الآتي:

1- المصادر: ونعني بها ما يرتكز عليها الدارس-في نظر فاضل السامرائي- للسير على طريق الدراسة البيانية، فهي القاعدة التي إذا انعدمت لم يستطع معها الباحث أن يرتقى إلى درجة البحث البياني في القرآن الكريم، وهي أمران:

أ- علوم اللغة: قد نبه في غير ما موضع إلى أن القاعدة الأساس في دراسته، هي علوم اللغة، ويكفي في بيان ذلك أنه جعلها أول ما يحتاجه السالك لهذا الطريق، فقد

[1] الحسين زروق، جهود الأمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم-المسار والمآل والمكتبة- ص177).

قال:"**ومن المهم أن أذكر ههنا أنني في أحكامي واستنباطاتي اعتمدت على القواعد المقررة والأصول الثابتة في اللغة ولم أخرج عنها، وقد حاولت أن أنأى عن التعليل الذي لا يقوم على أساس من مسلمات اللغة وأحكامها**"[1]، ونلحظ أنه لم يجعل المعرفة بعلوم اللغة فقط شرطا، بل ذهب إلى اشتراط التبحر فيها؛ ومعناه: التوسع والتعمق، يقول: "**فالمعرفة الواسعة والتبحر في علوم اللغة من ألزم الأمور للمفسر، وهي للمفسر البياني ألزم**"[2]، يؤكد ذلك بقوله:"**ولا تكفي المعرفة اليسيرة في هذه الأمر كما قرره علماء التفسير، بل على المتصدي لهذا الأمر أن يكون عالما بدقائق اللغة وما تؤديه التقديرات المختلفة إلى اختلاف المعاني**"[3]، فهو بهذا يستحضر ويَتَمَثَّل قول الشافعي رحمه الله تعالى: "وإنما بدأت بما وصفتُ، من أن القُرَآن نزل بلسان العرب دون غيره: لأنه لا يعلم مِن إيضاح جُمَل عِلْم الكتاب أحد، جهِل سَعَة لسان العرب، وكثرةَ وجوهه، وجِماعَ معانيه، وتفرقَها. ومن علِمه انتفَتْ عنه الشُّبَه التي دخلَتْ على من جهِل لسانَها"[4].

---

[1] على طريق التفسير البياني، ج1،ص05)، وقال أيضا:"وأود أن أذكر في الختام أمرا تجدر الإشارة إليه، وهو أني حاولت أن اعتمد في التوجيه والترجيح على الأمور اللغوية المسلمة والقواعد المقررة -على قدر علمنا المتواضع- والاستعانة بالسياق لتلمس الفروق في الاستعمال، وهو مهم جدا في الدلالة على سبب الاختيار" [بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتاب- القاهرة، ط2، 2006 ص8)]..

[2] المصدر نفسه ج1،ص08).

[3] المصدر نفسه ج1،ص09).

[4] الشافعي، الرسالة، تح: أحمد شاكر، مكتبة الحلبي-مصر، ط1، 1940 ص50).

وعلى العموم، فإنَّ هذه من أهم الركائز التي يُبنى عليها التفسير البياني، ومن أهم الركائز والقواعد التي بنى عليها فاضل دراسته البيانية، قد قدمنا لك اهتمامه وعنايته بالعلوم العربية، ويؤكد هذا أن نشأته الأولى كانت لغوية، وميله إلى اللغة كان لا يزاحمه شيء، ويكفي في ذلك قراءة معاني النحو، الذي قضى فيه نحوا من عشر سنوات في تأليفه.

ب- علوم القرآن: وقد أشار فاضل إلى أهمية كل من قراءات، وأسباب النزول، والأشباه والنظائر، والوقف والابتداء،...الخ، وأجمل ذلك بقوله:"**أن يكون-أي المفسر البياني- قد اطلع على جملة صالحة مما كتبه من تقدمه من مشاهير المفسرين، ونظر في كتب علوم القرآن وكتب الإعجاز وكتب المتشابه وتناسب الآيات والسور، وما إلى ذلك مما كتب في أسرار التعبير القرآني، فإن فيها أسرارا بيانية وفنية بالغة الرفعة**"[1]، وكأنه أراد بها أن يرشدك إلى أن تدرب ذهنك على تتبع الخصائص التعبيرية للقرآن من خلال النَّظر في كتب علوم القرآن وغيرها من التفاسير السَّابقة، وتعويده على طرائقها وأساليبها من خلال تتبع تجاربها.

2- ضوابط التي يتقيد بها: لقد تميز فاضل السامرائي حفظه الله في تناوله للدراسة البيانية بأن وضع ضوابط تسيِّر الدارس في طريقه هذا، من أهمِّ تلك الضوابط التي يمكن أن نستشفها من كلامه:

أ- أول هذه الضوابط والقواعد: "إنَّ التعبير القرآني تعبير فني مقصود. كلُّ لفظة بل كل حرف فيه وُضع وضعا فنيا مقصودا، ولم تُراع في هذا الوضع الآية

[1] على طريق التفسير البياني ج1،ص13).

وحدها ولا السورة وحدها، بل رُوعيَ في هذا الوضع التعبير القرآني كله"[1]، وقد نطق القرآن بذلك في غير ما آية منه، وسماه الله بيانا وتبيانا، قال تعالى:﴿ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ ﴾ (آل عمران)، وقال تعالى:﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل)، وقال تعالى:﴿ الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ (الحجر)، وقال تعالى أيضا﴿ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (يس)، ... وغيرها، ووصف عربيته بالإبانة، فقال تعالى:﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ ﴾ (النحل)، وقال تعالى:﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾. وقد تجلى هذا البيان عاليا واضحا راقيا على جميع مستوياته وأجزائه، في أصواته وحروفه، وفي كلماته وتراكيبه، وفي تشبيهاته ومجازاته، وفي قصصه وتصويراته، وفي أحكامه وأخباره ... وغير ذلك. ولهذا ذهب فاضل السامرائي إلى أن "إعجاز القرآن أمر متعدد النواحي متشعب الاتجاهات، ومن المتعذر أن ينهض لبيان الإعجاز القرآني شخص واحد، ولا حتى جماعة في زمن ما مهما كانت سعة علمهم،... وإنما هم

[1] التعبير القرآني ص10). وينظر أيضا: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، شركة العاتك لصناعة الكتاب-القاهرة، ط2، 2006 ص09).

يستطيعون بيان شيء من أسرار القرآن في نواح متعددة حتى زمانهم هم، ويبقى القرآن مفتوحا للنَّظر"[1].

وهذا أصل أصيل تقوم عليه الدراسة البيانية، لأنه إذا علم أنَّ الأمر على هذه الصورة، وبهذه الحقيقة، سعى الدَّارس إلى التَّساؤل ومحاولة الفحص عن وجوه التَّعليل والتَّوجيه.

ب- مراعاة خصوصيات الاستعمال القرآني: أي أنَّ للقرآن الكريم خوّاص تركيبية في الاستعمال تستخرج من تأمله، وقد اعتنى بها فاضل السامرائي، فنجده يعقد مبحثا في أحد كتبه عنونه: "من خواص الاستعمال القرآني"، واستهله بقوله:"**استعمل القرآن الكريم قسما من المفردات أو التعبيرات لمعنى معين أو خصها بمعنى من بين معاني المفردة أو التعبير**"[2]، ثم سرد مجموعة من هذه الخواص، وخواص أخرى تتعلق باستعمال الصفات، وأخرى تتعلق بالاقتران ... وغيرها، بما يدل فعلا أنَّ فاضلا السامرائي كان واعيا بأنَّ للقرآن الكريم تميزه في الاستعمالات اللغوية، فينبغي للدارس البياني أن يكون يقظا متنبها لها، ولهذا نجده كثيرا ما يذكر في دراسته: والقرآن يستعمل ...[3]، ويدلك على ذلك الاستعمال القرآني ...[4]، وغيرها من المواضع فهي كثيرة، فالعرف القرآني ضابط من الضوابط التي ينبغي أن تكون على وعي من الدارس.

---

[1] لمسات بيانية في نصوص من التنزيل ص5).

[2] من أسرار التعبير القرآني، دار الفكر،ط1، 2009 ص70).

[3] ينظر: على طريق التفسير البياني ج1، ص113، وص160).

[4] ينظر: المصدر نفسه ج1، ص162).

ج- الموهبة والذوق: وهذا من الضوابط التي ترجع إلى الدارس في نفسه، وقد وصفها فاضل بقوله: **"أساسُ كل علم وفن وصنعة، فبقدر ما أوتي الفرد من موهبة يكون شأنه في العلم والفن"**[1]، وعددناها في الضوابط على الرغم من أنها كانت عند الأقدمين من الوسائل التي تعرفوا بها على بلاغة القرآن وإعجازه، لأنهم كانوا أصحاب ملكة وسجية، أمَّا اليوم فإنَّ الطبيعة تغيرت، فلزم على الناس أن تكون لهم هي القاعدة بها يلجوا إلى دراسة القرآن الكريم، وعبد القاهر الجرجاني عندما تحدث عن نظرية النَّظم-وهي إحدى وسائل فهم بلاغة القرآن وإعجازه- جعل من شروط فهمها أن يكون المقْبِل عليها والمتَقَبِّل لها ذا موهبة وذوق، حيث قال:"واعلمْ أنه لا يصادِفُ القولَ في هذا البابِ موقعاً من السامِعِ، ولا يَجِدُ لديه قَبولاً، حتى يكونَ من أهلِ الذوقِ والمعرفةِ، وحتى يكونَ ممن تُحدِّثهُ نفسُه بأنَّ لِمَا يُومئُ إليه من الحُسْن واللطْف أصْلاً، وحتى يختلفَ الحالُ عليه عندَ تأمُّلِ الكلامِ، فيجَدَ الأريحيَّة تارةً، ويعْرى منها أخرى، وحتى إذا عجَّبْتَه عَجِبَ، وإذا نَبَّهْتَه لِموضع المزيةِ انْتَبَه"[2]. أما من كان متصلب الإحساس، جامدة الذوق فإنه لايرفع بذلك رأسا.

3- الإجراءات والآليات: والمقصود بها الطرق التي استخدمها فاضل السامرائي، قد نبه إلى بعض منها فيما يحتاج إليه الدَّارس البياني في مقدمة كتابه "على طريق التَّفسير البياني"، وبعضها تظهر من دراسته في باقي كتبه، من ذلك:

---

[1] المصدر نفسه ج1، ص14).

[2] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تح: محمود محمد شاكر، مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة، ط3، 1992م ص291).

ج1، ص14).

أ- إدامة النَّظر والتَّأمل: وهكذا عبَّر عن هذا فاضل السامرائي[1]؛ وهو ما يعرف بالتَّدبر، وشأن التدبر والتأمل عظيم جدا، لأنهما الأصل في الوقوف على المعاني، كما نَقَلَ ذلك عن الزركشي. أَلَمْ يقل الله تعالى:﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ﴿٢٩﴾ ﴾(ص)، قد كتب في هذا السياق الدكتور: عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني كتابا نافعا، يكشف عن جملة طيبة من قواعد التدبر[2].

ب- المقارنة بين المتشابه اللفظي[3]: ومن أهم الأدرات الإجرائية التي اعتمد عليها فاضل صالح السامرائي، آلية المقارنة بين المتشابه اللفطي، إما بين التراكيب القرآنية نفسها، أو بين التركيب القرآني والاحتمالات التركيبية المقاربة له، لهذا كانت للمقارنة عند فاضل صور متعددة، منها:

---

(1) على طريق التفسير البياني ج1، ص13).

(2) قواعد التدبر الأمثل لكتاب الله عز وجل، دار القلم-دمشق، ط4، 1980.

(3) إن الناظر في منهج فاضل صالح السامرائي يجده يقوم في الجملة على ثلاثة ركائز قوية، وحاضرة حضورا مكثفا، وهي: - التبحر في علوم اللغة: قد سبقت الإشارة إليها، -والسياق: وسيأتي الحديث عنه، والثالث: المقارنة بين المتشابه اللفظي، وقد ألَّف فيه ابنه محمد فاضل كتابا سماه: ["دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل"، تقديم: حسام النَّعيمي، دار عمار للنشر والتوزيع-الأردن، ط3، 2011.]، بيَّن فيه أنَّ المتشابه على قسمين: ما يكون في مقابل المحكم، والثاني المتشابه اللفظي: وهو إيراد القصة الواحدة في صور شتى، وفواصل مختلفة" ص22 نقله عن الزركشي والسيوطي) ويكون بكيفيات متنوعة. وهذا النوع الثاني هو المقصود. وقد ألف فيه عددا من العلماء منهم ابن الزبير الغرناطي.

1/ – مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها المفردة التي يراد تفسيرها واستعمالاتها ومعانيها ودلالاتها[1]، فكان فاضل يركز في توضيح معنى المفردة القرآنية وبلاغتها على:

– دلالاتها ومعانيها: فينظر في الدلالة المعجمية للمفردة القرآنية، محاولا العودة بها إلى أصل دلالاتها ثم ربطها بسياقها، كما فعل ذلك توضيح (الفلق)، (والغاسق)، و(وقب) [2]. ولم يكن يهمل أبدا الدلالة الصيغية للكلمة، بل كانت حاضرة دوما في دراسته مع الربط بينها وبين المعنى المعجمي، ومن أوضح المواضع في ذلك حديثه عن مدلول (الوسواس)[3]، وعند تفريقه بين استعمالات القرآن لـ: عالم وعلاَّم وعليم[4].

– تعليل اختيار اللفظة واستعمالها في مقابل احتمالات أخرى: وهذه من تقنيات المقارنة التي كان فاضل صالح السامرائي يعتمدها في درسه البياني، و على هذا قام معظمُ ما كتبه في كتبه. سواء أكان ذلك من القرآن نفسه كما نجد ذلك جليا في الفصول التي كان يعقدها بعنوان: تعاور الألفاظ تارة[5]، وتارة بعنوان: التشابه والاختلاف[6]،

---

(1) على طريق التفسير البياني ج1، ص12).

(2) ينظر: المصدر نفسه ج1، ص29، 34، 35).

(3) ينظر: المصدر نفسه ج1، ص49، 50). وينظر أيضا على سبيل المثال ج2، ص283) وغير هذه المواضع كثيرة جدا ومتنوعة.

(4) ينظر: المصدر نفسه ج1،ص240).

(5) وذلك كما في كتاب: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص109 وما بعدها).

(6) كما في كتاب: من أسرار البيان القرآني، دار الفكر،ط1، 2009 ص140)، وكما في كتاب: التعبير القرآني ص173).

ويسميه أيضا: بالحشد الفني إذا كثر التشابه[1]. أو كان يتناول ذلك في شكل أسئلة يجيب عنها[2].

ونلحظ هنا أن ذلك المقابل يكون من القرآن نفسه كما مرَّ في الأمثلة السابقة، وتارة أخرى قد يتصور التشابه بين اللفظ القرآني وغيره من الألفاظ التي من الممكن أن تكون مكانه، وهذا كما علل سبب الاتيان بـ(الجِنَّةِ) دون (الجانّ)، أو (الجِنِّ) في قوله تعالى: ﴿ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ٦ ﴾ (الناس)[3]، وكما علّل أيضا سبب الإتيان بـ﴿ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ﴾ في (الفاتحة) بدل (أحمد الله) أو (نحمد الله)[4]، والأمثلة على على هذا النوع من دراسة فاضل لا تقل كثرة عن الأول.

- وهو يوضح المعنى البياني للفظة القرآنية في ضوء هذين الأمرين، كان لا ينفك دوما عن مراجعة المواطن القرآنية التي وردت فيها تلك اللفظة، كما فعل ذلك على سبيل المثال في تفسيره لمعنى:(حق القول) من قوله تعالى: ﴿ لَقَدۡ حَقَّ ٱلۡقَوۡلُ عَلَىٰٓ أَكۡثَرِهِمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٧ ﴾ (يس). يقول:"**والذي يرجح ذلك أنه لم يرد في القرآن الكريم (حق القول) إلا لهذا المعنى[وهو ثبوت العذاب ووجوبه]، وكذلك (حقت**

---

(1) كما في كتاب: التعبير القرآني ص252).

(2) كما في الكتاب المؤلف من جزئين: أسئلة بيانية في القرآن الكريم، الجزء الأول طبع مكتبة التابعين-مصر، ط1، 2008. والجزء الثاني، طبع: دار ابن كثير-دمشق، ط1، 2011.

(3) ينظر: على طريق التفسير البياني ج1، ص55).

(4) ينظر: لمسات بيانية في نصوص التنزيل ص13).

كلمة ربك) فإسناد الفعل (حق) إلى القول أو إلى الكلمة لا يعنى إلا ثبوت العذاب ووجوبه وذلك في ثلاثة عشر موضعا"[1]، ثم سرد هذه المواضع الثلاثة عشر.

ومن ثمَّ أسلمه هذا النظر إلى بعض القواعد التي كانت تدفعه إلى التَّأمل والتَّدبر، من ذلك:

1- أن القرآن كان يحذف من الفعل للدلالة على أن الحدث أقل مما لم يحذف منه، وأنَّ زمنه أقصر، **فهو يقتطع من الفعل للدلالة على الاقتطاع من الحدث.**

2- يحذف منه في مقام الايجاز والاختصار بخلاف مقام الإطالة والتفصيل[2].

2/ - "مراجعة المواطن القرآنية التي ورد فيها أمثال التعبير القرآني الذي يراد تبيينه ليستخلص المعنى المقصود"[3]، قد كان تتبع فاضل لهذا الأمر تتبعا دقيقا، يستطرد معه، كما فعل ذلك في أول تفسيره لسورة الصف﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾، فقد تتبع مواضع ورود التسبيح وطرق تعديته ثم ملاحظة الفرق الدلالي بينها.

فهَدَاهُ مراجعة المواطن التي ورد فيها مثل هذا التعبير، من مثل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ٤١ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ٤٢ ﴾ (الأحزاب)، وقوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَإِدۡبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ٤٩ ﴾(الطور) إلى

---

(1) على طريق التفسير البياني ج2،ص18).

(2) ينظر: بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ص09).

(3) على طريق التفسير البياني ج1، ص12).

ملاحظة أن التسبيح يُعَدَّي باللام وبنفسه. وقد ترتب عن هذا أن يكون التعدية بنفسه يدل على مجرد التنزيه، والآخر يدل مع التنزيه على الإخلاص والعمل لله[1].

ثمَّ ضم لهذه الآيات آيات أخر، منها: قوله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١ ﴾(الحديد) ، وقوله تعالى:﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ ﴾(الإسراء ٤٤)، وقوله تعالى:﴿ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ ﴾(النور٣٦، ٣٧)، وقوله تعالى:﴿ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمۡ لَا يَسۡـَٔمُونَ ﴾(فصلت: ٣٨)، فلاحظ من ذلك:

- أن المتعدي باللام يكون للعقلاء وغير العقلاء، فهو أعم وأشمل من جهة المسبحون والأوقات.

- أما المتعدي بنفسه فلا يكون إلا مع العقلاء فقط، ولا يبلغ مبلغ الأول في الشمول والعموم[2].

وهكذا يواصل فاضل السامرائي تتبع التراكيب القرآنية المقاربة فيما بينها، معللا تلك الفروق ببيان دلالة كل واحد، وأحيانا أخرى يكتفي ببيان تلك الفروق، وشروطها التركيبية كما في هذه الحالة الثانية.

قد جمع فاضل صالح السامرائي هذه الحالة(حالة التركيب) والتي قبلها(حالة المفردة) من المقارنة بقوله:"**أن يسترعي نظره أي تغيير في المفردة والعبارة، ولو كان فيما**

[1] ينظر: المصدر نفسه ج1، ص200).

[2] ينظر: المصدر نفسه ج1، ص201).

يبدو له غير ذي بال، فإنه ذو بال، فإن وجد له تعليلا فذاك وإلا فسيأتي من ييسر الله له تعليله وتفسيره، كالإبدال في المفردة نحو (يطّهّر) و(يتطهر)، و(يذّكر) و(يتذكر)، والذكر والحذف نحو (تذكرون) و(تتذكرون)، و(يستطع) و(يسطع)، ولا (تتفرقوا) ولا (تفرقوا)، وتغيير الصيغة نحو (مغفرة وغفران)، و(عداوة وعدوان)، و(نخل ونخيل)، والإدغام والفك نحو (من يرتد) و(من يرتدد)، ويشاق ويشاقق، وما إلى ذلك"[1]. وقد سار على هذا في دراسته البيانية، ولهذا كانت مجموع البحوث التي يسجلها نتيجة لهذه المقارنة، من مثل: مراقبة التشابه والاختلاف، الحذف والذكر، التقديم والتأخير، المعلوم والمجهول، الإفراد والتثنية والجمع، تعاور المفردات...الخ، وقد أوضح بعضها ابنُهُ محمدُ فاضلٍ مصنفة ومرتبة ومبوبة في كتابه:"المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل"[2]. هي كلها ثنائيات أو تقابلات في اللفظة أو

---

[1] المصدر نفسه ج1، ص13).

[2] ألف ابن فاضل السامرائي ؛ محمد فاضل السامرائي كتابا تناول فيه المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، وقد اتبع خطة وزعها على قسمين:

- قسم خاص بالمفردة: تناول فيه مبحثين: الأول: دراسة اختلاف بنية الألفاظ: بين الأسمية والفعلية وأبنية الأسماء وأبنية الأفعال.

الثاني: دراسة أحوال المفردة: من تعريف وتنكير وتذكير وتأنيث وفروق لغوية.

- قسم خاص بالتركيب: وتناوله في أربعة مباحث: الأول: التقديم والتأخير

الثاني: الذكر والحذف.

الثالث: التوكيد.

الرابع: التكرار.

ينظر: محمد فاضل السامرائي، دراسة المتشابه اللفظي من آي التنزيل في كتاب ملاك التأويل، تقديم: حسام النعيمي، دار عمار للنشر والتوزيع- الأردن، ط3، 2011.

التعبير قائمة على المقارنة، وكان يرتب المباحث على وفقها، وهي-أيضا- التي ارتكز عليها في دراسة القصص القرآني عنده، وسماه: الحشد الفني، للحضور القوي لأوجه المقارنة بين التراكيب القرآنية في صياغة الحدث الواحد من القصة الواحدة[1].

ج- **السياق**: السياق من أبرز العناصر الإجرائية التي كان يعتمد عليها فاضل السامرائي في استنباط المعنى البياني أو في التوجيه البياني للعبارة القرآنية.

نشير بداية "إلى أن المعنى أو السياق الدلالي المرموز إليه بالعبارة اللغوية قد لا يكون موازيا للقصد الاتصالي للمتكلم، لأن قصده منقول بواسطة العبارة اللغوية، وليس المعنى أيضا موازيا للتفسير النهائي الذي يصل إليه المستمع، لأنه يستخدم معلومات أكثر مما يرمز إليه المتكلم في العبارة .... ولعلنا نعبر عن هذه الفكرة كما ورد في التراث الإسلامي بخصوص الوحي بأنَّ النص يكون قطعي الدلالة إذا كان المعنى المستفاد من النص واضحا غير محتمل ... ويكون ظني الدلالة إذا لم يعبر النص عن قصد واضح مما يجعله محتملا لتفاسير متعددة"[2]. عندئذ السياق هو الذي يُعين على اكتشاف الاحتمال الأقرب والأشبه بمراد الكلام، من هذا المنظور عامل فاضلُ صالحٍ السامرائيُ السياقَ، ولهذا صرح عنه بأنه "**من أهم القرائن التي تدل على المعنى**"، ومثل

والباحث هنا أغفل بعض المباحث التي أشار إليها أبوه: فاضل السامرائي فيما يتعلق بالتركيب من مثل: التشابه والاختلاف، تعاور الألفاظ ...وغيرها.

[1] ينظر: التعبير القرآني ص283 وما بعدها)، فقد تناول فيه قصة آدم عليه السلام بين سورتي البقرة والأعراف، وبين سورتي الأعراف وص، وبين سورتي الحجر وص، وتناول فيه أيضا قصة موسى عليه السلام.

[2] أحمد شيخ عبد السلام، نحو منهج لغوي مقصدي في التعامل مع نصوص الوحي، من مجلة التجديد تصدر عن الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا العدد: 05، 1999. ص157)

لذلك بقوله تعالى:﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴾ (الدخان49)، وعلق عليه: "**كيف تجد سياقه يدل على أنَّه الذليل الحقير**"[1]، ولو أهملتَه لوجدت غير هذا المعنى بل ضده.

ودفعه الاهتمام بالسياق إلى عنونة كتاب من كتبه بـ:"مراعاة المقام في التعبير القرآني". جاء فيه: "**إن مراعاة المقام في التعبير القرآني ظاهرة بينة، فلا يكاد يخلو موضع من مواضع التعبير من مراعاة المقام. فهو أمر عام في عموم المواطن من الذكر والحذف والتقديم والتأخير ....وغير ذلك من مواطن التعبير**"[2]، وقد أشار إلى أن كل ما كتبه عن مراعاة المقام "**إنما هو غيض من فيض، وليس استقصاء، ذلك أن الاستقصاء فيه متعذر لكثرته ولخفائه أحيانا**"[3].

والاهتمام بالسياق عند فاضل نجده من خلال اهتمامه بنوعي :

– سياق لغوي: وهو ما يعرف بالسِّباق واللِّحاق، فـ"لا يفهم معنى كلمة أو جملة إلا بوصلها بالتي قبلها والتي بعدها"[4]، لأن "مساق الألفاظ يجُرُّ ضربا من المعنى بجزئياته وتفاصيله"[5]، ولهذا نجد فاضلا قد استخلص من السياق اللغوي

---

[1] على طريق التفسير البياني ج1، ص13).

[2] مراعاة المقام في التعبير القرآني، دار ابن كثير-بيروت، ط1، 2015 ص05)، قد أشار فيه إلى أنه لم يخل كتاب من كتبه من الاهتمام بالسياق ومراعاة المقام في دراسة الظواهر التي تناولها، وهذا الكتاب تناول فيه الالتفات وعلاقته بالسياق.

[3] المرجع نفسه ص06).

[4] عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، طبع الرابطة المحمدية للعلماء-المغرب، ط1، 2014 ص181).

[5] المرجع نفسه ص181).

لقوله تعالى: ﴿ لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ﴾ (قريش) ست فوائد بلاغية، كلها من تأمُّل السياق، وهي:

1- إنه لو قال:(ليعبدوا رب هذا البيت لإيلاف قريش) لاقتضى ذلك حذف الفاء، ولانمحى المعنى الذي تدل عليه، وهو السبب وتقويته وتوكيد الكلام، فإنه لا تصح زيادة الفاء أولا.

2- إن هذا التقديم وسع المعنى فهو يحتمل أنه متعلق بالفعل (ليعبدوا) ويحتمل أنه متعلق بفعل مضمر تقديره (اعجبوا) ولو تأخر لتعين تعلقه بالفعل المذكور (ليعبدوا).

3- إن تقديمه قوَّى الربط بين هذه السورة والسورة المتقدمة فجعلها كالسورة الواحدة.

4- إنَّ تقديم (لإيلاف قريش) يفيد أهمية هذا الإيلاف في حياتهم وعظيم مكانته عندهم وأن التذكير بهذه النعمة مدعاة إلى الاعتراف بموليها ...

5- إنه لو قدم لقال (لتعبد قريش رب هذا البيت الذي أطعمها ...لإيلافها رحلة الشتاء والصيف) فيتمزق الكلام ويذهب رونقه وفخامته، ولم يؤد المعنى المقصود إذ من المحتمل أن يكون الجار والمجرور عند ذاك متعلقا بأطعمها ...

6- إن هذا التقديم إنما هو من باب تقديم العلة على الفعل، فذكر العلة التي تستدعي العبارة أولا وتلاها بطلب ذلك فيكون من باب التقديم بالسبق ... [1]

[1] على طريق التفسير البياني ج1، ص101).

فأنت تلحظ هنا فاعلية السياق اللغوي في استنباط المعاني التي قد لا يتوصل إليها من مجرد ظاهر الصياغة اللفظية.

- سياق خارج لغوي: ونقصد به كل ما كان خارج اللغة مما له تأثير في فهم مدلول العبارة، وقد تحدث الدارسون عن أنواع كثيرة له[1]، يجمعها جميعا أنها ليست علامة لغوية. قد استعان فاضل صالح السامرائي بجملة من العناصر غير لغوية في بيان الأوجه البيانية في دراسته، من هذه العناصر:

- الاتكاء على الدلالة الشرعية للكلمات: وذلك في نحو ذكره للوجه البياني في زيادة لفظة الرحمة في قوله تعالى:﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ۝٣ ﴾(لقمان) مقارنة بقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ﴾ (البقرة)، قال: **"الإحسان لا يقتصر على النَّفس بخلاف التَّقوى فإنَّها للنَّفس خاصَّة، والإحسَان إلى الآخرين من الرَّحمة فلما رحموا الآخرين رحمهم الله"**[2]. وهذا التوجيه مبني على مدلول التقوى والإحسان في الشريعة الإسلامية.

---

[1] ينظر: عبد الرحمن بودرع، الخطاب القرآني ومناهج التأويل نحو دراسة نقدية للتأويلات المعاصرة، ص181)، فذكر منه: السياق المكاني، والزماني، والموضوعي، والمقاصدي والتاريخي، وذكره غيره أنواعا أخرى. منهم : محمد بن علي الجيلاني الشتيوي، فقسمه قسمين : السياق الداخلي أو المقالي، الثاني: السياق الخارجي أو المقامي [التغير الدلالي وأثره في فهم النص القرآني، مكتبة حسن العصرية-بيروت، ط1، 2011 ص182). ومن أنفع الدراسات التي تناولت السياق القرآني وأنواعه، وأثره في الدلالة: رسالة عبد الحكيم بن عبد الله القاسم، دلالة السياق القرآني وأثرها في التفسير دراسة نظرية تطبيقية من خلال تفسير ابن جرير، دار التدمرية-الرياض، ط1، 2012. ينظر: الفصل الأول بداية من: ص 94).

[2] على طريق التفسير البياني ج2، ص285).

- الاستدلال بأمور تاريخية واقعية: وهذا كما في قوله: على قوله تعالى: ﴿ وَهُم بِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ ﴾(لقمان):**"وقدَّم (بالآخرة) على الفعل (يوقنون) لأن الايقان بالآخرة صعب ومقتضاه شاق، فإن الايقان بالمشاهد يسير، بل قسم من الناس يؤمنون بالله ولا يؤمنون باليوم الآخر، ومن هؤلاء كفار مكة كما أخبر عنهم ربنا في أكثر من موطن ... وقدَّم (هم) على الفعل (يوقنون) تعريضا بغيرهم ممن يدعي الإيمان باليوم الآخر ولا يعمل بمقتضاه، فكأنهم وحدهم الذين يوقنون إيقانا حقيقيا باليوم الآخر وكأنَّ من عداهم ليس بمؤمن"**[1].

- الاتكاء على العادة والعرف: فذهب إلى أن (بغير علم) في قوله تعالى:﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾(لقمان) له إمكانية التَّعلق بـ(يشتري) على أن معناها:**"يشتري بغير علم بالتجارة وبغير بصيرة بها حيث يستبدل الضلال بالهدى والباطل بالحق"** وبنى هذا على أن **"المشتري يشتري عادة ما ينفعه وهو يعلم ماذا يشتري، أما هذا فيشتري بغير علم وهو يشتري ما يضره ولا ينفعه"**[2].

... إلى غير ذلك من أنواع هذا السياق، هذا في الآيات الستة الأولى من سورة لقمان، مما يدل على قوة حضور السياق عند فاضل في الكشف عن المعنى البياني. مما يجب أن يلفت له الانتباه هنا، قوة فاضل على استحضار السياق، فكما أنه يستحضر ما سبق موضع البحث وما لحقه مما قريب من الآية نفسها، ومن الآيات المجاورة لها في المقطع نفسه، فإنه يمتد نظر إلى السورة كلها أو إلى القرآن كله، في استحضار عجيب للآيات.

---

[1] المصدر نفسه ج2، ص288).

[2] المصدر نفسه ج2، ص288).

الأثر الدلالي للسياق عند فاضل: ومع هذا الاستحضار القوي، فقد كانت له دقة في استخدامه، ولهذا تنوعت كيفيات التي كشف بها عن المعنى بالسياق، من ذلك:

1- بيان المناسبة: لقد كانت المناسبة وجها من الوجوه البيانية البارزة في استعمال السياق للكشف عنها، فكان فاضل صالح السامرائي يكشف عن كثير من الوجوه البيانية الكامنة في المناسبة بين الآيات في المقطع الواحد؛ بين الآية وما سبقها أو لحقها، كما قال عن الآية الثانية في قوله تعالى:﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾(الحديد): **"ومجي هذه الآية بعد آية التسبيح أنسب شيء، فإن الشخص قد يحمد في ذاته إن لم يكن مالكا أو ملكا. فإن مَلَكَ شيئا أو مُلِّك عليه فقد يظهر عليه ما لم يكن ظاهرا أو يتغير بتغير الحال، فيذم ويعاب. أو قد يقصِّر في ملكه أو يسيء، ولذا كان مجيء هذه الآية أنسب شيء لأنه ذكر أنه منزه في جميع الأحوال، فهو منزه في ذاته ومنزه في عزته ومنزه في حكمه وحكمته ومنزه في إحيائه وإماتته ومنزه في قدرته..."** [1].

وهكذا كان السياق أداة فاعلة في الكشف عن وجوه المناسبة المختلفة بين خاتمة السورة وأول التي بعدها، وبين أولها وخاتمتها عند فاضل صالح السامرائي، يليق أن يخص ببحث مفرد يتناولها من جوانب المختلفة.

2- تعليل صورة التركيب في مقابل غيره: وهذا الأثر الدلالي للسياق، جاء باستفاضة قوية جدا عند فاضل السامرائي، وهو صورة من صور إبراز المناسبة، لكن بين ألفاظ الآية، وهو ناتج -كما ذكرنا من قبل- عن المقارنة بين المتشابهات اللفظية. والأمثلة عن هذا النوع متكاثرة جدا، حتى لأنه ليمكن القول: إن معظم فصول

[1] المصدر نفسه ج1، ص237).

التفسير معقودة على هذا الأمر، ولهذا كثر من فاضل صالح السامرائي مثل هذه العبارات: "...لأن السياق في الكلام على ...."، " وسياق كل من الآيتين يوضح ذلك ..."، "... فإنه ليس في هذا السياق ..."، ناهيك عن العبارات الأخرى التي تكون بهذا المعنى دون ذكر للسياق: كـ: هذا أنسب...، فناسب كل تعبير موطنه ... ، لارتباطه ...، إن جو السورة تردد فيه ذكر ...، ..وجاء بكذا بدل كذا ... [1]، وغير ذلك من العبارات التي تدل على التأمل القوي في السياق، وعلى أن جل ما يذكره السيخ حفظه الله من تفسير، إنما هو من تأمله في سياقات الكلام والمقارنة بينهما.

وأحيانا كان يعلل التركيب في ضوء النظر في سياق السورة الواحدة، وذلك من خلال استخراج ما أسماه بـ: **الخط التعبيري** المتحكم في السورة، وهو التفات ذكي يوضح المنحى العام التي تسير عليه السورة، فنجده مثلا يذكر عن سورة الليل:"**إن السورة فيها أكثر من خط تعبيري، منها: خط العموم، ومنها خط المقابلة، ومنها خط التفضيل، وغير ذلك من الخطوط التعبيرية ... ويتضح خط تعبيري آخر، وهو ذكر الدرجة العليا في الوصف**"[2]، وفي ضوء هذه الخطوط يتم توضيح كثير من الأوجه البيانية، وتعليل التراكيب اللغوية للسورة.

3- أن يفيد التقييد: نعني به أنّ الدلالة مقيدة بأحوال وظروف معينة إما أن تكون تركيبية أو مقامية،كما ذهب إلى تعليل عدم ورود ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ في قوله تعالى: ﴿ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ ﴾(الحديد) كما رود في مواطن أخرى، مثل: المائدة: 17، 18، والزخرف 85.

---

[1] الأمثلة على ذلك كثيرة، ويكفي في هذا أن يقرأ الواحد منا تفسير أي سورة شاء.

[2] على طريق التفسير البياني ج1، ص147، 148).

وأرجع السبب -بحسب السياق- إلى أن "**كل موطن ذكر فيه أنَّ له ملك السماوات والأرض وما بينهما إنما جاء تعقيبا على القول في الله ما لا يليق به سبحانه كقول النصارى إن المسيح ابن الله أو هو الله أو قول اليهود ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ﴾ فجعلوا أنفسهم أبناء الله**"[1]، والعلة التي يرجع إليها هذا القيد السياقي -بنظر فاضل صالح السامرائي- هي " **أن الذي يتخذ ولدا إنما به حاجة إلى ذلك ... أما الله فإن له ملك السماوات والأرض وما بينهما ... فيذكر سعة ملكه في نحو هذا الموطن لبيان أن قولهم باطل وأنه غير محتاج إلى لولد، أما ما لم يرد في سياق ذلك فلا يذكر ﴿ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾**"[2]، ولا يتوقف تقييد السياق عند هذا، بل يلفت فاضل السامرائي نظرنا إلى أمر آخر: "**أن كل موطن ذكر فيه ﴿ وَمَابَيْنَهُمَا ﴾ إنما هو سياق الكلام على ثلاث ملل وهن: اليهود والنصارى والمسلمون... فناسب بين الملل الثلاث وما ذكره من السماوات والأرض وما بينهما**"[3].

4- فتح مجال الاحتمالات المعنوية: وذلك أن النظر في السياق يهدي إلى أن التركيب القرآني يدل على معان متعددة، وأمثلة هذا التوظيف للسياق عند فاضل ما قاله عند قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾(لقمان١٢): "**فهذا التعبير يفيد عدة معان في معنى واحد: آتينا لقمان الحكمة وآتيناه أن اشكر لله، أو: وأوصيناه به، ومن الحكمة أن تشكر ربك، واشكر ربك على ما آتاك من الحكمة**". **ثم على طريقه في الاتيان بالمقابلات والمقارنات لتأكيد توحيهه، أضاف قائلا: وقد تقول**

---

[1] المصدر نفسه ج1، ص237).

[2] المصدر نفسه ج1، ص237).

[3] المصدر نفسه ج1، ص238).

ولم لم يقل: ولقد آتينا لقمان الحكمة فاشكر لله؟ فنقول: لو قال ذاك لم يفد هذه المعاني وما أفاد إلا معنى واحدا، وهو أن تكون الحكمة سببا للشكر، ولكان فيه ضعف في الدلالة، ذلك أن المعنى سيكون أن الذي أوتي الحكمة لقمان والمأمور بالشكر غيره"[1].

5- تحديد العرف القرآني في الاستعمال: فالنَّظر في السياق القرآني هدى فاضل السامرائي إلى تبين جملة من خصائص التعبير القرآني، كانت هي في حد ذاتها أوجها بيانية تارة، وتارة أداة تفسيرية وأوجها تعليلية، والأمثلة على هذا النوع كثيرة جدا ومتنوعة من ذلك مثلا: حديثه عن استعمال القرآن لصيغة عالِم وعلاَّم وعليم، يقول:**"ومن دقيق الاستعمال القرآني وطريفه أنه خصص اسم الفاعل (عالم) بعلم الغيب مفردا والشهادة مفردة ... ولم يذكر مرة لفظ (عالم) مع الجمع، فإذا جمع الغيب أتي بـ(علاّم) الدال على المبالغة والكثرة، فيقول: علاَّم الغيوب، ... فهو يقول (عالم الغيب) بالمفرد في ثلاثة عشر موضعا[2]، وقال: (علام الغيوب) في أربعة مواقع[3]، ... أما (عليم) فإنه أطلق استعماله فلم يقيده بمعلوم معين بل يذكره مع جميع المعلومات[4] ... أو يستعمله مع الجمع أو فعل الجماعة"[5].** إلى غير ذلك من الآثار الدلالية للسِّياق في الدراسة البيانية عند السامرائي.

---

[1] المصدر نفسه ج2، ص304).

[2] ينظر على سبيل المثال: الأنعام 73، التوبة 94، 105، سبأ 3، الجن 26.

[3] ينظر: المائدة 109، 116، التوبة 78، سبأ 48.

[4] وهذا كقوله تعالى في كثير من الآيات: بكل شيء عليم) كما في البقرة 29، 231 مثلا، وغيرها من المواضع التي لا تخفى.

[5] على طريق التفسير البياني ج1، ص240، 241).

ويمكن القول إنَّ البحث في هذه الآثار عنده من الثَّراء بمكان، يدلك هذا على أنَّ الدِّراسة البيانية عنده هي قراءة لمدلول القواعد اللغوية للآيات القرآنية في ضوء سياقها.

نتائج البحث: بعد تَبْيِينِنَا للعناصر المنهجية التي قامت عليها الدراسة البيانية عند فاضل صالح السامرائي نخلص إلى تسجيل أهم السِّمات التي اتسمت بها:

- الدراسة البيانية عند فاضل صالح السامرائي هي تناول القرآن الكريم تناولا لغويا مركزا فيه القواعد النحوية والبلاغية والبيانية مع الاستعانة ببعض الأدوات الإجرائية للكشف عن أسرار كتاب الله تعالى بلاغية وإعجازه البياني.
- تنوعت الدراسة البيانية عند فاضل السامرائي بين أن تكون مرة دراسة لبعض المباحث البيانية كالتقديم والتأخير، والحذف والذكر، ... وغيرهما، ومرة أخرى تكون تناولا بيانا لسور كاملة من القرآن الكريم وهو الذي يسمى:"التفسير البياني".

وكانت غالبية السور في هذا النوع من المفصل، ولم يتناول إلا بعضا من المثاني، وهذا يدل على متانة التفسير البياني وصعوبته وكثافته، واحتياج السور الطوال إلى نفس طويل من جهة استحضار لعوامل متعددة، من أبرزها: السياق والموضوع، ولهذا قال عنه أحدهم إنه "فوق طاقة الأفراد"[1]، واقترح أن "ينهض به عمل جماعي منظم تتولى أمره مؤسسة لها أطرها وأدواتها وخطة عملها"[2]. وَلاَجَرَمَ، فإنه خطوة من خطوات بيان جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم، قد أقر فاضل السامرائي بعجزه عن الكشف ذلك الإعجاز بمفرده، ولهذا فإذا أردنا أن نرسم بعض الخطوط

---

[1] الحسين زروق، جهود الأمة في الإعجاز البياني للقرآن الكريم ص177).

[2] المرجع نفسه ص177).

المنهجية لهذا اللون من التفسير فعلينا أن نستثمر جميع الجهود السابقة في هذا المجال، فإن كل جهد منها قد ركز على جانب من جوانب هذا اللون من التفسير، جانب من جوانب الدراسة البيانية.

• كان قصده من الدراسة البيانية تعميق الصلة بالكتاب العزيز وإبراز دلائل إعجازه، لتقوية الايمان به بالدليل العلمي القاطع، لا بالاعتقاد المجرد، ولهذا لم يكن – حفظه الله– يُعْنَى بالمسائل النظرية، ولم يكن يسعى إلى أن يثبت قوة منهجه، وصحة أدواته، بل كان يباشر الدِّراسة التَّطبيقية مباشرة.

• ارتكز جهده في الدراسة البيانية على ثلاثة مفاتيح أساسية:

– علوم اللغة: لم ينظر إليها نظرة جامدة، وإنما نظر إليها نظرة دلالية وظيفية.

– اعتماده على المشابهة اللفظية والمقارنة بين التراكيب القرآنية وغيرها من الاحتمالات التعبيرية سبيلا إلى استنتاج المعنى البياني.

– استثمار السياق بأنواعه المختلفة؛ من داخلي وخارجي، وضيق وموسع، استثمارا قويا في بيان المعاني البيانية.

• وقد حظيت الدراسة البيانية عنده بنوع من الإحكام المنهجي، وبشيء من التوفيق في التطبيق العملي، والذي أهلها لذلك التزامها بآداب المفسر البياني، والتي منها:

– استحضاره للمقصد الأساسي من دراسة القرآن بيانيا، ألا وهو تعميق الصلة بالكتاب العزيز، وتقوية الإيمان به.

– التواضع واتهام الرأي بالقصور، مما يجعله متحريا في آرائه، وفتح الباب نحو ثراء المعاني للنص.

– الموهبة المصقولة بالتكوين الجيد.

• من النظر منهج فاضل السامرائي تبين أنَّ منهج الدراسة البيانية عامة، والتفسير البياني خصوصا يقوم على ثلاثة أركان، كل ركن تحته مجموعة من العناصر:

أ- المصادر: تتكئ الدراسة البيانية والتفسير البياني على مجموعة من المصادر هي مادته الأولية، وهي: علوم القرآن، وأهمها: العلوم اللُّغوية خاصة البلاغة منها.

ب- الضوابط: التي ينبغي أن يستنير بها الدارس والمفسر في تفسيره لكلام الله تعالى، فهو ليس كلاما ككلام البشر، بل ينبغي أن تحفظ له قدسيته ومكانته.

ج- أدوات إجرائية: وهي ما يكون وسيلة في يد الدارس والمفسِّر للوصول إلى الوجه البياني: ورأينا بعضها عند فاضل، ومنها: دراسة المفردة في مستوبات مختلفة، جمع المواطن المتشابهة والمقارنة بينها، استثمار السياق.

وبعد أن رأينا جملة من هذه المنطلقات المنهجية والمعرفية التي كانت تتكئ عليها الدراسة البيانية عند فاضل صالح السامرائي وكانت تشكل سماتها ومرتكزاتها، نعلم أن لهذه الدراسة إحكاما منهجيا ومعرفيا يؤهلها بحق لأن تكون نموذجا يحتذى به في التأصيل لهذه الدراسات البيانية والإعجازية في القرآن الكريم، والانطلاق نحو أفق أوسع وأرحب نتفيأ بها في ظلال القرآن الكريم الذي يبقى معين دلالته ثَرًا ومعطاء لكل من تأمل وأعمل فيه فكره، فاللهم انفعنا وارفعنا بكتابك، واجعله لنا هاديا إليك. والحمد لله أولا وآخرا، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.